

## امراتان في امرأة كتابة روائية جديدة

في أتون هذه المشاعر المتناقضة ، التي ليست في حقيقتها سوى دلائل مظهر واحد ، يبدأ رفض « بهية » لمعتقدات الناس الذين لا يحرمون سوى الرغبات الحقيقية لأنها قوية ، فتبحث في هذه المحرمات عن رغبات الإنسان الحقيقية الدفينة لتتوصل الى حقيقة ذاتها . وما رفضها للمظهر المقيد لآبناء جنسها سوى رفض لنظام التحريم والاحباط، الذي على أساسه تربي الفتاة ، فتصور لها الرغبت الجنسية شيئاً غير طبيعى يوحى بالفتور ، وتقوم على تحقير الاعضاء الجنسية ، انها باختصار عملية بناء مخلوق لا جنسي ، والغرابسة أن على المرأة ان تتحول بعد الزواج الى مخلوق جنسي ، ينام ويصحو ويأكل ويشرب الجنس .

من خلال هذه الحقائق ، واخرى عديدة ، يفتح وعي « بهية » على حقائق الاشياء ، كانت تشعر ان الطلاب من حولها ، بالرغم من عيونهم ، لا يمارسون عملية النظر حقيقه ، انما يرون ظلال الاشياء دون حقيقتها ، أنهم افراد مستلبون ، ضحايا بريئة لعمليات اخضاع وترويض جعلتهم ظلالا موهمة للحقائق من هنا عمق الهوة التي تفصل بين « بهية والآخرين » . الناس لا يريدون انسانا حقيقيا نرفعهم حقيقته الى حد الشروع في قتله او قتله فضلا . ولذلك لا بد لهذا الانسان أن يكون مطاردا دائما ، او مقتولا او محكوما عليه ، او مسجوناً ، او معزولا في مكان بعيد عن الناس .

في هذا المقطع تلخص الكاتبة استحالة العلاقة بين شخصية البطلة من جهة ، والعالم الزيف من جهة اخرى ، فرفض البطلة لآبيها نابع في الحقيقة من رفضها تلك القوة الرهيبة ( الوظيفة ) التي تستبد والدها ، وتجعله آله ، او نسخة مكررة من الوفا مستكينة مستسلمة مثلها ، وهو رفض لسلطة القمع المتمثلة في سطوة الاب على الابناء ، وتحكمه بمصائرهم ، ورفض للضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع من خلال الاب تحت ستار الاخلاق .

ومن خلال هذا كله تدرك بهية عبث الاشياء من حولها ، عبث كلام الاستاذ في الجامعة ، وعبث المحاضرات ، وعبث الكون كله . وفي وسط هذه اللوامة يظهر « سليم » ومعه تبدأ عملية ولادة جديدة للبطلة ، اذ يستطيع « سليم » أن يقهر ضعفها وتردها ، ويحررها من ذاتها التقليدية التي تضغط عليها ، ويعيد اليها ارادتها، وفترتها على التقرير وعلى تحقيق ما تريده ، فتدرك بهية : « أنها بطريقة سحرية ، ستصبح انسانة اخرى غير بهية شاهين ، اي أنها ستصبح نفسها الحقيقية » .

وتبدأ ثورة البطلة بالتحرد اولا من رابطة الدم التي تقيدها بأمها وأبيها واخوتها ، وبدأت « بهية » من خلال « سليم » تشعر بخصوصيتها الفردية ، وبدأت تتحسس كينونتها الذاتية وهويتها الخاصة ، واستطاعت ان تحقق ما تأقت دوما الى تحقيقه ، استطاعت ان تفنى معه حتى التلاشي « كقوة الارض حين تشد اليها الجسد .. التفت لراعاه حولها وذراعاهما حوله ، وبذلك الرغبة العنيفة في السوبان في الكون ، وفقدان الاحساس بالجسد وثقله ، والفناء الكامل والتلاشي في الجو كذرات الهواء » .

وبدأت بهية تشعر بدهاء جديدة تجري في عروقها وأحسنت انها

في خضم النتاجات الروائية التي تتوالى على الظهور في ادبنا العربي ، تبرز رواية «امراتان في امرأة» ✕ كشاهد على ميلاد كتابة روائية جديدة .

والكتاب نيس حكاية نحرر انثى ، او تمرد فتاة ، انما استطاعت الكاتبة ان نضمن تجربة بطلتها الفردية ، تجربة انسانية شاملة ، انها مسيرة الانسان وسعيه نحو تحقيق ذاته في وجه ضغوطات المجتمع وتحدياته .

« بهية شاهين » فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، تسمى بخطى ثابتة للكشف عن حقيقة الوجود ، وعن ماهيته الاصلية الكامنة وراء مظاهر الاشياء ، لانها في ذلك تسمى نحو حقيقتها هي .

غير ان مسيرتها هذه وسعيها الحثيث يتعرضان لاجباطات العالم المحيط المتعددة ، وفي مقدمتها التربية التقليدية القائمة على الكبت والتحريم، وخالقة اسطورة الانثى ( الفرد الناقص الضعيف) . الى جانب ذلك تفت التقاليد ( التي تمثل القيم الاخلاقية في المجتمع ) على تقييد ارادة الفرد وسلبه حريته وذاتيته ، وتعمل قطاعات المجتمع المختلفة بكل مؤسساتها على تعويق هذا الاستلاب ، الذي هو في حقيقته استلاب للفرد بشكل عام بفض النظر عن جنسه ، ذكرا كان ام انثى .

وتختار الكاتبة اللحظة الزمنية المثلى في حياة بطلة روايتها ، سن الثامنة عشرة ، وهي سن انحسار الراهقة امام فتحة الوعي وازدياد الرغبة في التحرر والاستقلال والبحث عن هوية مميزة. فتصطبم هذه الرغبة بالشخصية الكامنة في الذات التي صنعها المجتمع في نفوس افرادها ، دون ان يكون لهؤلاء آية ارادة حقيقية فيها ، انها ما اراده المجتمع ، وعلى الافراد أن يتقبلوا ، والا فيسيكون نصيبهم اللعنة ، تلك اللعنة التي نبت من خلالها المجتمع « بهية شاهين » في نهاية القصة .

نرى « بهية » في بداية القصة اسيرة صراع عنيف بين صورة ما تريده حقاً ، وبين الصورة التي يملئها المجتمع. « اسمها فوق الغلاف يبدو تحت عينها غريباً كاسم تلميذة اخرى مطيعة ومؤدبة ، تسمع الكلام وتعمل الواجب ، وتدفن حقيقة نفسها في طيات الورقسة المختفية .. كالعاجز الطويل الضخم كان أبوها يقف بينها وييسن نفسها الحقيقية » .

وتلقي الكاتبة اضواء على جذور المشكلة ، لتشير أن « بهية » في بحثها عن حقيقة نفسها ، انما تتوق الى الرجوع الى حالة التوافق الامثل ، التي كانتها قبيل ولادتها ، والتي تحطمت الى الابد ، منذ أن اصبح لها جسد مميز ، منفصل عن جسد امها ، فتبدأ من هنا ما تسميه المأساة : « منذ طفولتها وهي تحس المأساة حول جسدها الخاص .. داخل كل خلية من خلاياها رغبة جامحة في العودة من حيث آتت ، في الخروج من مجال الجاذبية الارضية ، وفي ان تصبح بغير جسد ، رغبة جامحة في اللويان .. والتلاشي النهائي » لذا ستكون هذه الرغبة هدف البطلة الاول الى حد التضحية بالنفس ومن جهة اخرى الخوف الشديد والتشك في قدرتها على تحقيقها ، من هنا معاولتها الهرب من نفسها .

✕ تأليف الدكتور نوال السعداوي، منشورات دار الاداب ببيروت

لزييف الذي يسلبه يوما بعد يوم . « حقيقته ، ويجعله يقنع باوهام  
ويعيش على هامش الحياة ، ويشل قدرته على الرفض ، فيصبح  
تطميا طمعا في ايدي التسلط والارهاب .  
لذلك فان ثورة « بهية » ليست موجهة ضد سلطة اب  
او وصاية مجتمع ، وانما ثورة ضد ايدولوجية القمع التي مازالت  
تسيطر على مجتمعاتنا الشرقية .

رفضها ليس رفضا اثويا فصائحا ، انما هو رفض ارادة حرة  
للاستلاب والاستسلام للذل ، الذي يجعل من نفوس الافراد ، وجوها  
متشابهة كقطع النقد

قد نفاجا كيف استطاعت الكاتبة ان تقول هذا كله في قصة  
لا تتعدى المائة والاحدى والاربعين صفحة ، وفي لغة صريحة وموجبة  
في آن معا ، آيدت فيها الى الالفاظ مدلولاتها الحية بعد ان تقربت  
طويلا في مسالك التخلق القصصي الشاذ المقد . فصدق اللفظ هنا  
نابع عن صدق الواقع ، فهي غنية كفاه ، مشبعة كشعبه ، محملة  
مثله بالالم والشقاء والسعادة ، والثورة ، اعاقها في بعض الاحيان  
ميل الكاتبة العلمي ، وجهها للتطيلات النفس الاجتماعية  
( وهذا يعود الى كون نوال السعداوي طبيبة قبل ان  
تكون قاصة ) هذا الميل الذي كثيرا ما اضعف الاحساس بالتوتر  
والتشويق في السرد القصصي .

غير ان هذا التحليل الاستقصائي قد ساعد من جهة اخرى على  
الكشف العميق لاكثر المشاعر الانسانية تشابكا وتشعبا ، وعدة  
الكاتبة في هذا المجال دراية عميقة بالنفس ، استقتها من ثقافتها  
العلمية ، ومن المعاشة اليومية للواقع .

والجديد في هذا المجال ان نمو الوعي والشعور لدى البطلة  
يرافقه تحول عضوي فيزيولوجي لا يفصل عنه ، فالوحدة كاملة  
بين ابعاد النفس الثلاثة : العقل والشعور والجسد . ولاول  
مرة تحمل صورة الجسد ابعادا رمزية متعددة تكاد تكون مستعدنة  
في الكتابة الروائية :

الساقان المضمومتان، المشية اللدودة للفنأة، رمز للكتب الجنسي  
الذي ربيت عليه « لم تكن الساقان تنفصلان ابدا في حركة الخطوات،  
اذ تظل الساقان ملتصقتين ، والركبتان ملتحمتين ، كانما تصفط بين  
فخذيها على شيء تخشى وقوعه » .

صورة الانف المرتفع الذي يشق الفضاء ، دليل التحدي ، اما  
سواد العينين فرمز للارادة الصلبة التي لا تعرف التردد .  
« انفها الحاد يشق الكون بغير رفق ، عينها شديدا السوداء  
مرفوعتان الى اعلى ، شفتاها مزومتان في اصرار كالغضب ، او  
غضب كالاصرار » .

غير ان النزعة العلمية ، دفعت القاصة احيانا الى تجاوز بعض  
المطالب الفنية للبناء الدرامي ، اذ يبدو لنا من غير المنع ان تكون  
فتاة الثامنة عشرة هي صاحبة كل هذه الصراعات وكل هذا الوعي  
للأشياء وهذه العانة الوجودية الواعية الناضجة . وتأثر شخصوي  
الرواية بواضعها ليس شيئا غير مشروع ، على الا يكون هناك  
هوة تفصل بين ما يمكن ان يوجد فعلا ، وبين ما املته ارادة الكاتب .  
من هنا الانفصال بين الظروف البيئية التي احاطت بنموذج الرواية  
وبين صورة البطلة التي رسمتها القاصة ، حتى الصراع الذي يعترى  
البطلة يبدو احيانا صراعا جديليا نظريا اكثر منه صراع الحياة .  
وهذا يعود الى مشيئة الكاتبة في تضمين روايتها كل الخلفيات  
النفسية والعلمية حصيلة ثقافتها هي ، وليس نتيجة التنامي  
الطبيعي لشخصية البطلة . من هنا سقوط الكاتبة في بعض القوالب  
الجاهزة غير الواقعية ( شخصية الاب كممثل لسلطة القمع ، وكراهية  
الابنة له لا يبدو مضمنا من وجهة النظر الواقعية ) ولكن بالرغم من ذلك،  
فان هذا لا ينتقص من القيمة الفنية للرواية ، مما يجعلنا نكرر ما  
سبق ان الكاتبة اتت بالكثير الذي يبشر بولادة كتابة روائية جديدة .

بيروت

اليوم غيرها بالامس ، وكان حياة جديدة نشأت من العدم . لقد نجحت  
اخيرا في فهم ما هو تابع لغير ارادتها ، فحققت الانسانية الحية  
الحقيقية فيها : « مزقت الفشاء الذي كان يفصل بينها وبين الحياة،  
غشاء رقيق غير محسوس ، وغير مرئي كلوح من الزجاج يفصلها عن  
جسدها ، ويقف بينها وبين حقيقتها » .

الصعب مع بهية اتخذ شكلا جديدا انه نوع من لقياء الذات  
والكشف عن كنهها الاصلي ، سليم ليس سوى الوجه الاخر لبهية ،  
الوجه التمرد الحقيقي الذي تحدى قوى القمع والضغط ، انه الثورة  
التي مزقت استار الخوف التي كانت تظلل بهية ، واطلقتها حرة  
حقيقية بمواجهة الحياة .

و « بهية » ليست مجرد انثى تعاقب لتمردا بتزويجها من  
انسان تمقته ، فتهرب منه في ليلة العرس بعد ان تضربه ، بل هي  
مصر الثورة ، مصر الرفضة للانحراف السياسي ، والكتبت الاجتماعي،  
والقمع البوليسي .

« وسليم » هو الثورة الواعية الكامنة في جسد الامة ، وعلى بهية  
ان تقطع المسافة فيما بينهما لتتحد به ، عليها ان تدوب في كيانه  
بشكل لا نهائي ، عندها فقط تستطيع ان تحقق ذاتها .

واختارت بهية الثورة طريقا لها ، فثارت في وجه التقاليد  
التي تريد استعبادها ، وفي وجه الانظمة التي سلبتها حريتها . ولقد  
حاول المجتمع بالقابل ان يجهض ثورتها ، فلما فشل نبذها ، وحاول  
في النهاية تصفيتها جسديا عن طريق الاعتقال والتعذيب . وكان  
هذا ما ارادته « بهية » منذ البداية ، لانها رأت فيه الوجه الحقيقي  
لتلك الانظمة الفاسدة التي تحاول اخفائه بلا جدوى ولقد استطاعت  
بهية تحدي العذاب ، واصبحت ذات مقدرة خارقة لتحمل الارهاب  
لانها تخلصت من الوعي الانساني المزيف واصبحت الان تتمتع بقدرتها  
الواعية .

وفي نهاية القصة نشهد « بهية » وهي تحاول اللقاء مرة ثانية  
بسليم ، وعندما تراه تكون يداها مفلولتين بالقيود والسلاسل ،  
وكانما ارادت الكاتبة ان تقول ان ليس في وسع مصر اليوم تحت  
وطأة ما تعانيه من ظروف ان تترك الثورة الحقيقية ، فالي متسى  
سوف تبقى السلاسل تقيدها ؟ .

من خلال هذا العرض التحليلي نستطيع ان نقول اننا امام  
تجربة جديدة للقصّة العربية .

واذا كان يلذ لبعض النقاد التحدث عن نتاج قصصي نسائي مميّز  
واخر مذكر ، فلقد استطاعت الكاتبة ان تحطم هذه الحدود ( هذا  
ان كانت موجودة حقا ) لتجعل من كتابتها سبرا اجتماعيا شديدا  
الفسور لواقعنا العربي ، وكشفا صادقا وموضوعيا  
( الى حدود الموضوعية العلمية ) عن حقيقة مشكلات مجتمعاتنا  
انطلاقا من الفرد فالعائلة ، فالجامعة ، فالجتمع الكبير ، مجتمع كل  
الناس .

ولقد اتخذت القاصة من وضع الفتاة في المجتمع العربي مدخلا  
تريد ان تقوله في هذا الصدد . فمجتمعا العربي مجتمع ، صنع  
الرجال قيمه ، ووضعوا له مثله العليا ، واصطنعوا له قوانينه ،  
واضطلعوا بمقدراته . وحتى اليوم وبالرغم من انتشار الوعي ،  
وازداد نسبة المتعلمات ، والامارات في مختلف القطاعات ، ما زالت  
الانثى تخضع لنفس التربية التقليدية التي تعتبرها كائنا ضميما ناقصا  
( بالرغم من كونها تتمتع في مجالات عملها بنفس القدرة الانتاجية  
للرجل ) . فمشكلة المرأة في المجتمعات المتخلفة ، والراسمالية الكبرى  
( التي تشهد حاليا حركة لتحرير المرأة ) ليست سوى مظهر من  
مظاهر التهاوت الاجتماعي الذي على اساسه قامت هذه النظم .

فمشكلة المرأة في المجتمع العربي جزء لا يتجزأ من مشكلة  
التخلف الذي تعاني منه باقي قطاعات المجتمع . من هنا « بهية »  
ليست مجرد انثى فقط ، انما تحمل في جوهر شخصها روح الجيل  
الجديد برمه ، الجيل الرفض الوصاية مجتمع قانع بالذل « مستسلم